

في ربوع البأسين

يوم بين العميان

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

في معهد العميان :

هناك في شارع المطرية وعلى مسيرة بضع دقائق من محطة الزيتون يرى السائر داراً فسيحة تحيط بها حديقة جميلة وعلى مدخلها لوحة صغيرة تحمل اسم "الجمعية المصرية لرعاية العميان" هذا معهد العميان ولتاريخه قصة طويلة سنلخصها فيما بعد . وكل ما يهمنا أن نذكره الآن هو أن هذا المعهد قد انتقل من يد الجمعية التي تحمل اسمه إلى حضانة وزارة المعارف وأنه المعهد الحكومي الوحيد الذي يعنى بأمر العميان في مصر جمعاء .

وارتقيت الدرج الرخامي الموصل إلى الإدارة حتى إذا بلغت نهايته استقبلتني باظرة المعهد الآنسة زينب مرسي ، وقد أبدت ارتياحها وترحيبها بهذه الزيارة التي مستبح للبعض أن يعرفوا شيئاً عن هذا المعهد وتلفت الأنظار إلى مؤسسة إصلاحية جديدة بكل عناية وتشجيع .

وانتقلت إلى الكلام عن المعهد فذكرت أن لديها خمسين طالباً تتراوح أعمارهم بين سبعة أعوام وثلاثة عشر يتعلمون ويقيمون بالمعهد ومدّة الدراسة خمس سنوات يسلم الغلام بعدها إلى ذويه بعد أن يكون قد تعلم صناعة تفتينه عن السؤال . أما الأولاد فيتعلمون حلاوة على الأشغال اليدوية التي تشمل صناعة الخيزران وحبك القش والصوف مواد ثقافية أخرى كالقرآن الكريم للمسلمين ، والتاريخ والجغرافيا والتربية الاجتماعية والحساب وعلم الصحة أما القراءة والكتابة فيتعلمونها بطريقة انضغط بجهاز خاص يبرز حروفاً رمزية على الورق وهي الطريقة المعروفة بطريقة بريل Braille واستطردت الآنسة في حديثها فقالت إن لديها في هذا المعهد اندرامى مصنعا نجار العميان يقومون فيه بإنتاج كثير من مصنوعات القش والخيزران وأنها إذا أسفت لشيء فأسفها نقلة إقبال الناس على اقتناء منتجات هؤلاء البأسين رغم جودتها ورخص ثمنها .

وانتقلت بنا إلى حجرات الدراسة فشهدنا الصغار يدرسون القرآن والتفسير، وقد لاحظت أن المعهد لا يعنى بتعليم التجويد مع أنه فن مرشح وهو خير ما يتناسب مع حالة اللاجئين .

وانتقلنا إلى فصل آخر حيث رأينا الصغار يقومون بعمل تماثيل من عجينة خاصة، وقد عجبت إذ أخبرني المعلم بأن ما نشهده هو درس في التاريخ وأن ما يفعله الأولاد هو تصوير مشاهد القصة بأيديهم كما يتخيّلونها، وقد رأيت بين أنامل الأطفال تماثيل لكراسي وأسلحة وأشخاص ، وقد أثار إعجابي تلميذ صغير قدّم إلى تماثلا طينا يمثل شخصا ، حتى إذا رددته إليه صاح في سذاجة تتفق مع سنه الصغيرة قائلا: ”يا سلام... أهو حضرتك كمرت رقبة قطر الندى ... ؟!“ قلت: ومن تكون ”قطر الندى هذه؟“ قال: ”بنت السلطان اللي بقالى أعمل وأصلح فيها نص ساعة ... ؟!“

وحضرنا بعد ذلك درسا في الموسيقى ، ولشد ما أثار إشفاق مشاهد هؤلاء الضرييرين وهم يتحسون أوتار القيثارة أو العود ثم ينتقلون بينها بأنامل واهنة صغيرة فيطلقون من صرير أقواسهم وضربات ريشاتهم أنغاما شجيّة محزنة تستدر الرحمة وتثير الحنان .

فرصة عظيمة ... ! :

وصحبتنا الآنسة بعد ذلك إلى معرض المصنوعات ، فإذا بنا في مخزن اكتظ بكل نافع وملئ بالقيم المفيد، ووقفت بين المعروضات أشاهد صناعة متقنة يعجز عن عملها المبصرون ، ثم أتأمل تلك الأرقام المتواضعة التي تحملها بطاقات كل منها . وإني أسألك أيها القارئ الكريم لا لصالح العميان فحسب ، بل لخيرك ولصالح جيبك ، أسألك أن تزور معهد العميان بالزيتون وأن تعرج أيضا على مصنع الفرش القائم كذلك بتلك الضاحية مما سأقص عليك نبأه في هذه العجالة ، تزورهما لترى بعينيك صنع من لا عيون لهم ، وتشهد بناظريك عمل من فقدوا أبصارهم وعدموا أنظارهم .

سرى الصناعة المتقنة تضحى بمن لا يتصوره عقل . فهذه سلة للطعام متينة جميلة تباع بمائة مليم لن تجدها في غير المعهد بمائتين ، وتلك زهرية للورد بثلاث عيون مصنوعة من الصفصاف والخيزران ، غاية في الحسن والرونق ، ترين صالتك أو حجرة طعامك ، بثلاثمائة مليم لا أكثر ، وهذا يا آباء الأولاد مقعد للأولاد ، بدع ... مريح ... مدهش وبثمن مدهش أيضا بثلاثمائة مليم تدفعونها لغير العميان ثمنا للعبة صغيرة من صنع أوروبا أو اليابان .

وهناك كل ما يلزم لصغاركم وكباركم : لعب من القش أو الصوف ، سجاجيد صغيرة ، شموعات ، سلات ، أوعية كبيرة للغسيل ، أطعم خيزران متينة ، مفارش ، حافظات

للورق كل حال "رخيص وكويس وابن ناس ... ! " ومضيت أتأمل ما يحيط بي وتقدمت
 المناظرة تسألني رأيي ، قلت : معجب بغير شك ، وحبذا لو ضاعف الالاجئون جهودهم
 وأكثروا من إنتاجهم ، قالت : نعم نحن نعمل ونتج ، ولكن أين المشترون ، نحن رغم
 ماترى لا نبيع يا أكثر من خمسة جنيهات في الشهر . . . ثم أطرقت وقالت وقد بدأ عليها
 الثائر : " إني لأتأمل إذ أرى إنتاج هؤلاء المساكين يكدم في المخازن. نحن هنا في معزل عن
 الناس وكم وددت لو كثر الزقار ليروا ما نصنع ويشجعوا هؤلاء البائسين بالإقبال على
 معروضاتهم ، ثم صادت تقول إني أسألك أن تذبح في صحيفة " الشؤون الاجتماعية "
 رجائي ... قلت يا سيدتي : إنما تسألين واجبا وتظلين حقا وما لنا لا ندعو القراء لزيارة
 هذا المعهد واقتناء منتجاته وفي إقبال الناس عليه خير لهم قدر ما فيه من تشجيع للبائس
 الضرير .

إجراءات غريبة :

على أن تبعة الجمهور في كساد منتجات العميان لا تقاس بإجراءات مصالح الحكومة له
 وإحجامها عن شراء منتجاته ، ولعلك تتعجب إذ تعلم أن وزارة المعارف تشتري ما يلزمها
 من سلال للمدرسة ولديونها العام بمناقصة عامة يشترك فيها المعهد كأى متجر أو مصنع ؛
 وكثيرا ما يرسو العطاء على غير المعهد نظرا لأن المصنع الذى يفور بالعطاء هو دونه المنتج الذى
 يقوم ببيع الخامات للمعهد وغير المعهد، وهو لهذا يعرض سعرا لا يقوى المعهد على منافسته فيه .

ولقد روى لى كاتب المعهد أن قسما من أقسام وزارة الدفاع طرح في المناقصة حشو
 كراسيه ، فلما رسا العطاء على المعهد طمب منه تأمينا لا عن العطاء وحده بل عن الكراسى التى
 ستنقل إلى المعهد لحشوها ، وهكذا تأبى تلك المصلحة الحكومية أن تأمن مصلحة حكومية
 مثلها ، وتطالبها بضمان ماى لتضمن إني ما هنا . فهل رأيت أعجب من هذا ؟ ثبت هذا
 ونرجو أن تعير وزارة المعارف والى هذا الأمر جانبا من عنايتهما ، وأنا أتأمل أن نرى
 فى القريب وزارة المالىة تصدر منشورا إلى كافة المصانع والوزارات لترسل كراسيها التى
 تريد حشوها وتبعت بطلباتها عن السلال التى تزمها ، تبعت بها إني معهد العميان فإن ضاق
 بطلبات المصانع وهو سيضيق بغير شك بضاعف عدد صناعه وتوسع أعماله المنتجة بما يبيى
 أسباب الرزق هؤلاء العميان الذين يتضورون جوعا فى كل مكان وقل أن يجدوا سيلا
 للقتوت فى ذير التسؤل والسؤال .

في مصنع القش والخيزران :

و يتبع المعهد كما أسلفنا مصنع صغير به ثمانية وأربعون عاملا من العميان وعليهم يقوم أكثر الإنتاج . مررنا بهذا المصنع فرأينا عماله جادين منكمين على عملهم ، هذا يعمل في سلة وذلك يقوم بصنع كرسي وثالث يجهز مشحبا ، على أنهم مع ما يبذلونه من جهد لا ينالون الأجر الكافي ، وحبسنا أن نذكر أن متوسط أجورهم أربعة قروش ونصف مع أنهم رجال وكلهم أرباب أسر لديهم زوجات وأطفال .

وعمال هذا المصنع بعضهم من تحريجي المعهد والبعض من الخارج ، وكم وددنا لو قضى بنقل كل تحريجي المعهد بعد إتمام دراستهم إلى المصنع ليكتسبوا من العمل فيه قوتهم .

ذلك بأن المعهد لا يعنى بمستقبل طلبته ، فهم يقضون به مدة الدراسة ، ثم يخرجون منه إلى دور ذويهم أو إلى الشارع إذا عدموا القريب دون أن يهبأ لهم العمل مع أن أهم ما يربح لهم هو أن يكفل لهم العيش ليكفوا أنفسهم والناس ذل التسؤل .

في ملجأ ومصنع القش :

وتركنا معهد وزارة المعارف وسرنا في شارع المطرية حتى بلغنا ملجأ ومصنع القش الذي يتبع الجمعية المصرية لرعاية العميان .

ويقوم الملجأ والمصنع في دار فسيحة من ثلاثة طوابق تحيط بها حديقة صغيرة بديعة للتنسيق ، وقد قصر العمل فيه على صناعة القش التي ينتج منها عددا كبيرا في كل يوم ، ويورد أكثر مصنوعاته للجيش والمصالح الحكومية .

وبدأ مديره الأستاذ رضوان يطوف بنا حجرات مصنعه فشاهدنا الفرشة من ساعة أن تكون شعرا خاما إلى أن تصير كاملة صالحة للاستعمال . وحامات المصنع كلها من إنتاج البلد ، وقد كان يستورد الشعرا من عهد قريب من الخارج غير أن ناظره النشيط أثر — بسبب ارتفاع أسعار الشعرا اليوم — أن يستخدم الشعرا الذي يتخلف في سلخانة العاصمة لخصيص عاملا يتولى غسله وترجيله وحبكه في لفات ، فوفربذلك مبالغ كبيرة كانت تدفع لتاجر الأجنبي . وانتقلنا إلى ردهة المصنع حيث أحاطة النشبة بموائد العمل كل منكب على ما بيده لا يشغله عنه شاغل ، هذا يركب الشعرا في الخشب وذلك يقصه وثالث يهذب ، كل هذا يتم في سرعة فائقة رغم استخدام بعض الآلات الحادة . ومضينا بعد ذلك إلى مخزن المصنع فرأينا آلاف الفرش المختلفة الأنواع المتباينة الحجم والأشكال — هذه للكفص وتلك للصح وثالثة للسقوف ورابعة لدورات المياه وغيرها مما تربوا أنواعه على العشرين .

قصة رعاية العميان في مصر :

قص على أحد معلمى المصنع واسمه "محمد ابراهيم" قصة رعاية العميان في مصر منذ نشأتها قال :

"منذ اثنتين وأربعين سنة هبطت أرض مصر سيدة انجليزية من المشتغلات بالخدمة الاجتماعية اسمها مسز ارميتش ، وقد راعتها كثرة العميان في هذا البلد فكلفت الدكتور سكوت الإخصائى بتقديم تقرير عما يراه لعلاج هذه الحال . وعملا بما ورد بتقريره قامت تلك السيدة النبيلة بأول عمل جدى لإصلاح شأن العميان فاشترت دارا بضاحية الزيتون وأعدتها ملجأ ومصنعا للعميان ، ولم تلق مؤسسة العميان الأولى في بادئ الأمر اقبالا غير أنها لم تلبث بفضل الجهود التى بذلتها صاحبها أن جذبت إليها العميان من كل صوب وحذب .

"وقد كان لى حظ الالتحاق بتلك المؤسسة من وقت إنشائها. والحق أنى ما وجدت مكانا أكثر رعاية بالعميان من ملجأ ارميتش ، فقد كانت تعاملنا كأبنائها ، كانت تكفل لنا كل شىء من قوت وعلاج ومسكن ، وكانت تعطى اللاجئ منا فوق ذلك ستين قرشا كل شهر ، ولما تجاوزت نفقات الملجأ الأول والمصنع الذى يتبعه حدود الجهد الفردى إذ ربت فى آخر الأمر عن ألف وخمسمائة جنيه فى السنة اضطرت المؤسسة إلى الاستنجاد بذوى الأريحية فكونت جمعية من الانجليز والمصريين أسلمت اليهم الأمر وساهمت فى النفقات بأكبر نصيب . وكان بين أعضاء هذه الجمعية بعض الكبراء كفتحي باشا ورفيع بك مشكى وأمين باشا أنيس ، وظلت دار مواسة العميان وتربيتهم تعمل حتى قامت الجمعية المصرية لرعاية العميان".

والى هنا انتهى حديثه فأخذ الأستاذ رضوان يكمل لى القصة قال :

"ألفت الجمعية المصرية لرعاية العميان فى مارس سنة ١٩٣٣ من بعض الكبراء المصريين وبعد أن اجتمع لديها من الاشتراكات مبلغ يكفى للبدء فى العمل استأجرت فى سبتمبر من ذات السنة مترا بشارع المطرية بلينجار شهرى قدره عشرة جنيهات أعدته معهدا للأولاد وضمت إليه فضاء ليكون ملجأ لهم وعينت له ناظرة ومدرسات فنيات ، عند ذلك أسلمت "جمعية مواسة العميان وتربيتهم" - وهى الجمعية الأولى التى جلونا أمرها - زمام عيانتها إلى الجمعية الجديدة التى بدأت العمل فى معهدا ومصنعها بعد وقت قصير .

"ولاقت الجمعية شأن كل جماعت البر فى هذا البلد متاعب مالية كادت تودى بها لولا متابرة القائمين بأمرها وصبرهم وجهادهم لإبقائها والنهوض بها . وحسبت أن تعدم أنها

قد منيت في عام ١٩٣٤ بمعجز في ماليتها، غير أن وزارة المعارف بفضل وساحة رعاة الجمعية سارعت إلى مد يد المعونة إلى الجمعية واشترطت عليها أن تتوفى الوزارة إدارة المعهد والمصنع فرضيت الجمعية بذلك وسلمتهما إلى الوزارة في أوائل عام ١٩٣٥ "ومضت الجمعية بعد ذلك تعدّ عدتها للقيام بعمل جديد بعد أن أسلمت ماتم للحكومة ، حتى إذا كان صيف عام ١٩٣٧ استأجرت هذه الدار وأعدتها لكبار العميان ، وهي اليوم تصم ستين أعمى تطعمهم وتؤوى جانباً منهم وتمطى الداحلي منهم قرشا كل يوم ، أما الذي يبيت حارج المعهد فيتناول قرشا ونصف قرش على أنها رأت ألا تصرف المكافأة كلها إلى الابلجين بل عمدت إلى حجز جانب منها يرد إليهم عند مبارحتهم المصنع ليستعينوا به على العيش . ولما لمست الحكومة أهمية العمل الذي تقوم به الجمعية قزرت وزارة المداخنة في عام ١٩٣٦ منحها إعانة تقرب من الأربعمائة جنيهه وأعظتها المالية رُضا من أملاك الدولة بالعجوزة مساحتها ستة آلاف متر، وفي عام ١٩٣٧ قزرت لها وزارة المعارف إعانة قدرها خمسمائة جنيهه وفي عام ١٩٣٩ بنقت إعانة الحكومة أكثر من ثلاثة آلاف جنيهه .

"وقد اكتسبت الجمعية صفة دولية باشتراكها في الاتحاد الدولي لرعاية العميان وحضور مندوبها المؤتمر العالمي الذي عقد بالخارج كما أن مصنعها خاضع لإشراف وزارة المعارف التي تبعت هي ووزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الداخلية بمفتشها بين حين وحين .

وبعد أن أمدنى حضرة الناظر بهذه البيانات قال : "ونعناك تدرك مقدار ما بلغناه من نجاح إذ تعلم أن ما بعناه في عام ١٩٤٠ وحده قد قاربت قيمته ألفا وثلاثمائة جنيهه وهو مبلغ يدل دلالة واضحة على تحسن المستوى الصناعى والانتاجى بالمعج ، وأدل على هذا التحسن أن الجمعية اشتركت في المعرض النوعى للصناعات في العام الماضى وفارت بالمدالية الذهبية والمكافأة المالية .

"على أن الجمعية لازالت بحاجة شديدة إلى معونة الموسرين وأولى البر، ذلك بأن ما تجمه من الاشتراكات والتبرعات ضئيل، وحسبك أن تعلم أن الاشتراكات في العام الماضى لم تتجاوز الخمسين جنيها ولا تزيد التبرعات على ثلاثمائة جنيهه منها مائة جنيهه جاد بها سعادة شهد بك حسن العبد ونحمسون تبرع بها رفعة على ماهر باشا".

واختم الأستاذ حديثه فقال : "إن مسألة العميان جديرة بالعناية، فالبلاد تموج بهم وقد أعدت هذه الجمعية الأساس الصالح للنهوض بمستواهم، فعلى الأمة أن تمد يد المعونة إليها لتسع أعمالها وتؤدى للبلاد رسالتها كما ينبغي".